

من قصص الحياة

المثال



اقصصة فرنسية بقلم الأستاذ ابن عبد الملك

كان الزوجان يسيران على هذه الحال لا يتبادلان الكلام ولا النظر، حتى قالت الزوجة :
 — لنقف هنا قليلا . فوقفا ، وتقدم الخادم
 إلى الرسام بكرسي صغير من القماش فقمع عليه .
 وكان كل من صر بالزوجين الساكنين الساكنتين
 يلقى عليهما نظرة حنان وحزن ، فقد اضطربت
 الألسنة بأن حادثا من حوادث الاخلاص والتضحية
 وقع بينهما ، إذ تزوج الشاب منها على الرغم من
 عاهتها المزمنة تأثرا من حبها إياه كما يقال . فقال
 رجل لآخر وكانا جالسين على مقعدين يجعلان
 نظريهما في الفضاء :

— كلا ، ليس هذا صحيحا . أنا أعرف
 جان سومير جد المعرفة
 — إذن لماذا تزوجها ؟ فقد كانت حين الزواج
 على هذه العاهة ! أليس كذلك ؟
 — نعم هو كذلك ؛ ولكنه تزوجها .
 تزوجها كما يتزوج الناس حقا وسفاهة
 — وبعد ؟

— وبعد ؟ ليس هناك بعد ولا قبل يا صديق .
 الانسان أحق لأنه أحق . وأنت تعلم من خصائص
 الرسامين الزواج المضحك ، فهم يتزوجون على
 التقريب كل الأمثلة (modèles) ؛ وقد يتزوجون من

كانت مدينة (أربتا) ذات الصخر الأشهب
 والحصى الأبيض والبحر الأزرق تستريح تحت
 الشمس الصاحية ، في يوم من أيام يوليو الصاحية .
 وكان منظرها العام أشبه بالهلال قد انتهى طرفا
 استدارته يباين أحدهما صغير وهو الأيمن ، والثاني
 كبير وهو الأيسر ، ثم تقدما في الماء الساكن
 نفوخ كلاهما فيه ، وارتفعت قمته حتى بلغت
 مستوى الصخور . وكان قد جالس على شاطئها
 المديد جماعة من المصطافين ينظرون إلى المستحمين ،
 واحتشد على مشرف السكازينو جماعة أخرى قائمة
 أو قاعدة تعرض تحت أضواء الشمس المشرقة جنة
 مزهرة من الزينة تسطح في خلالها المظلات الحجر
 والزرق مطرزة بأزهار الحرير الملون . وانزل في
 آخر المشرف على طريق النزهة فريق آخر من
 المصطافين يربدون السكون وينشدون الراحة ، فوقفوا
 خطام الوثيدة على أنغام الموج بعيدا عن زحمة
 الأجسام وضجة الأصوات . وكان بين هؤلاء شاب
 معروف نابه هو الرسام جان سومير . كان يمشي
 ساها واجبا بجانب عربية صغيرة من عربات المقعدين
 يدفعها الخادم في هون ورفق ، وقد جلست في هذه
 العربية زوجته وهي فتاة في ريق العمر تسرح النظر
 الحزين في جمال السماء وزينة الأرض وبهجة الناس

مما ، لأن في طبيعتهم أن يكن صادقات كاذبات على أشد ما يكون الصدق والكذب ، أو لا يكن على شيء منهما أصلاً

أنظر الى الوسائل التي يتوصل بها أكرم النساء ليلابن منا يردن ، تجدها وسائل ممقدة وساذجة ؛ فهي ممقدة بحيث لم تقع في حدسنا من قبل ، وساذجة بحيث تراها بعد أن نصبح من ضحاياها لا يسمنا إلا أن تعجب منها ونقول : « كيف ! لقد خدعتني بحمق وغباوة » . ثم إنهن ينجحن دائماً يا عزيزي ، وعلى الأخص إذا تعلق الأمر بزواجهن . وهاك قصة السيد جان سومير :

كانت الفتاة مثلاً كما علمت ؛ فكانت تجلس في مرسمة على الأوضاع التي يريدها ؛ وهي بارعة الشكل ظريفة الطبع رشيقة القوام ، فمسةما كما يمشق الانسان كل فتاة على مثالها في الجلال والفتنة ؛ ثم تخيل أن حبها قد أخذ بمجامع قلبه . وهناك ظاهرة غريبة : اذا ما رغب الانسان امرأة ظن مخلصاً أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها بقية عمره ، ولكنه متى ملكها زهد بها ، وإن تستطيع الشهوة البهيمية أن تمسكه بحانها طول الحياة ، فلا بد من شيء آخر هو توافق النفس والطبع والمزاج . ومن واجب الرجل أن ينظر حين تفتنه المرأة : أهذه الفتنة صادرة عن إغراء الجسم ، أم عن جاذبية الروح . وقصارى الكلام أنه أحبها أو ظن ذلك ، فمأهدها على الاخلاص وواعدها على الوفاء ، ثم عاس هو وهي على هذا الأمل . وفي الحق كانت الفتاة ظريفة ، وزاد في ظرفها تلك الغباوة اللطيفة التي تنصف بها الباريسيات الصغيرات ؛ فهي تثرثر وتهذر وتنطق بالحماقات التي تجعلها الطريقة القريبة التي تلقاها بها

الحديثات المجائر ، ومن السيدات المعوهات لأي سبب من الأسباب ؟ لماذا ؟ لا يعلم أحد لماذا ؟ يخيل إلى على العكس بأن طول معاشرتهم لهذا النوع من النساء الفواجر اللاتي يسميهن الناس (أمثلة) جعلهم يمافون جنس الأنثى ، فانهم بعد أن يجاسوهن ليرسموا صورهم على مثالهن يتزوجونهن . اقرأ الكتيب الصادق القاسي الجليل الذي ألفه الفونس دوديه بعنوان (نساء الفنانين)

أما الزوجان اللذان تراهما ، فان الحادث الذي وقع بينهما وقع على صورة خاصة وحال فظيمة لقد مثلت هذه الفتاة مهزلة ، أو بالحري مثلت مأساة أليمة . لقد قامرت بكل ما تملك لتربح كل شيء أو تخسر كل شيء . هل كانت مخلصاً ؟ هل كانت تحب جان ؟ لا يدري ذلك إلا الله . ومن ذا الذي يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً ما في عمل المرأة من زور وحق ؟ إنهن مخلصات دائماً في ما يبدو عليهن من آثار انفعالاتهن ومظاهر عواطفهن . فهن ساخطات بجرمات مخلصات كريمات لثبات على حسب ما يجري في شعورهن من البواعث والآثار . وهن لا يفترن عن الكذب من غير أن يردن ولا يعلمن ولا يفهمن . وفيهن مع ذلك وعلى رغم ذلك صراحة مطلقة في الأحاسيس والعواطف اللاتي يظهرنها بأحكام وحلول عنيفة غير متوقعة ولا مفهومة ، تضلل منطقنا في الرأي والحكم ، وعادتنا في التمديل والتوفيق . فالماجأة والعنف في عزماتهن يجعلانهن ألسنازاً لا تحمل ، فنحن لا نبرح نسأل هذا السؤال : « هل هن صادقات ؟ »

« هل هن كاذبات ؟ »

ولسكنهن يا صديقي صادقات كاذبات في وقت

أشبهه بالبراعات الذهنية ؛ وكان لها في كل لحظة حركات تنبئ بها عين الرسام : فهي حين ترفع ذراعيها ، وحين تبسط يديها ، وحين تنحني ، وحين تركب العربية ، تريك حركات محكمة مقدرة مناسبة . وفي غضون ثلاثة أشهر لم يلاحظ جان أنها في حقيقة أمرها تشابه سائر (الأمثلة) ، فاستأجر بيتاً صغيراً في (أندريسي) ليقضيا فيه الصيف . وكنت هناك ذات ليلة حين أخذت الهموم الأولى تنبت في قلب صديق ؛ وكانت تلك الليلة قراء ، فأردنا أن نجول جولة على ضفة النهر ، وكان القمر يرسل على الماء المرتد وابلاً من الضوء ، ويكسر أشعته الصفراء على دارات الماء وتيار اللج وعباب النهر البطيء الهارب كنا نسير على طول الشاطئ نشاوي من ذلك الطرب المبهم الذي تبعثه فينا هذه الليالي الحاملة ؛ وكانت نفوسنا مهيأة لأعمال فوق أعمال البشر ، وقلوبنا مفتحة لحب كواثر شمعية مجهولة ؛ وكنا نشعر بالجذبات والرغبات والأمانى تحتاج في نفوسنا ، فلزمنا الصمت مفتونين بصفاء السماء وطراءة الليلة الجميلة ، وعذوبة البحر التي خيل إلينا أنها نفذت إلى الجسم وغمرت الدهن وعطرته وغمسته في السعادة

وعلى حين بغتة صاحت جوزفين (وهو اسم الفتاة) قائلة :

— هل رأيت السمكة الكبيرة التي وثبت هناك ؟

فأجاب جان من دون أن ينظر أو يعلم :

— نعم يا عزيزتي

فقلت مغضبة :

— كلا إنك لم ترها ، لأن ظهرك كان إليها فابتسم وقال : نعم هذا صحيح ، فان الجو قد

استولى بجباله على فلم أفكر في غيره
فأمسكت عن الكلام ، ولكن شهوة الحديث
ملكها بعد لحظة فسألت جان :

— أذهب أنت غداً إلى باريس ؟

فأجابها :

— لا أعلم

فعاودها الغضب ، وقالت :

لعلك ترى مما بهيج نفسك أن تنزه وأنت صامت . إن الانسان إنسان لأنه يتكلم ، فلم يجب على قولها بشيء . وفطنت هي بفضل غريزة السكر فيها إلى أنها ستحنقه ، فأخذت تنفي ذلك اللحن المثير الذي آذى الآذان والأذهان منذ عامين ، ومطلعه : كنت أنظر في الفضاء ... فقال لها منعماً :

— اسكتي من فضلك ؛ فقالت له محتدة :

— ولماذا تريد أن أسكت ؟ فأجابها :

إنك تفسدين علينا المنظر

هنا حدث المشهد الكريه السفيف بمتابه المفاجئ وحسابه المتسلسر ، فاحتقنت الوجوه وانهمرت الأعين ، ثم عادا الى البيت . وكان جان قد تركها تمضي في ثورتها لا يدفع ولا يهاجم ، لأنه كان مخدر الأعصاب بنشوة هذه الليلة الملوية التي هبطت بها إلى الأرض هذه العاصفة الهوجاء

ومضت بعد ذلك ثلاثة أشهر ، كان الفتى يضطرب اضطراب القنيص في هذه العلاقة القوية الخفية التي تربطنا بها العادة في مثل هذه الحالة . كانت الفتاة لا تنفك ترهقه إرهاب المصطهد ، وتمذهبه عذاب الشهيد ، فصار يومها وليامها شجاراً متصلاً لا يخلو من سباب وضرب وأخيراً صمم على أن تنتهي هذه الحال على أي

وجه وبأى ثمن . فباع رسومه واقترض من أصدقائه بعض المال حتى حصل في يده عشرون ألف فرنك فوضعهما ذات صباح على الدفأة ومعهما كتاب الوداع وترك لها المنزل ولجأ إلى بيتي

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر قرع الباب ، فذهبت أفتحه فإذا هي في وجهي لا تكاد تملك نفسها من الحنق والقلق ، فارتبكت أنا ، ودخلت هي ، ورآها هو من بعيد فوق حتى أقبلت عليه ورمت بين قدميه الغلاف وفيه الأوراق المالية . وقالت في هيئة نبيلة ولهجة موجزة : هاك نقودك . لا حاجة لي بها . وكانت حينئذ ممتعة اللون مضطربة البال حرية بأن تأني كل حماقة ؛ وكان هو كذلك كاسف الوجه محنق الصدر حريا أن يرتكب كل شدة ، فسألها : ماذا تريدن ؟ فقالت : لا أريد أن تعاملني معاملة البغي ، لقد توسلت إلى حتى سكنت إليك ، فأنا لا أطلب إلا أن تبقىني عندك

فضرب الأرض برجله وقال منفعلا :

لا ، هذا كثير . إذا كنت تظنين أنك ... فحذبه أنا من يده وقلت له : دعني يا جان أفعل . ثم تقدمت إليها وأخذت أكرس من غضبها بكل ما عليه الخاطر في مثل هذه الحال ، وهي تستمع إلى جامدة شاخصة صامتة مصرة . فلما فرغت جمبتي والحال لا يزال على أشده ، لجأت إلى آخر الحيل فقلت : إنه لا يزال على حبك يا صغيرتي ، ولكن أسرته تريد أن تزوجه ، وأنت تعلمين ... فأخذتها رجفة قوية وقالت :

— آه .. آه ! لقد فهمت الآن ، ثم التفتت إليه وقالت : تبني أن تزوج ؟ فأجابها في شدة وحزم : — نعم . نخطت إليه خطوة وقالت :

إذا تزوجت قتلت نفسي . أسمع ؟
فهز كتفيه وقال : حسن ! اقتلي نفسك ! فنبتست بكامة أو كلمتين وقد أخذ يكظمها الهم القاتل :
أقول ؟ .. أقول ؟ .. أقول ؟ .. أعد ! فقال معيدا :
اقتلي نفسك إذا كان هذا يسرك ! فقالت وشحوبها يزداد وحالها تسوء : لست في حاجة إلى التحدي ، سألقى بنفسي من النافذة . فضحك جان بملء فيه ومضى إلى النافذة ففتحها ، ثم حيا وانحنى ، كمن يريد أن يقدم عليه غيره في المشي ، وقال : هذا هو الطريق ! تفضلي ! فثبتت فيه نظرها الحائر الطائر لحظة ، ثم جمعت نفسها كمن يريد أن يقفز سياجا في حقل ، ومرت أمامه وأمامي إلى النافذة ثم اختفت !

لا أنسى ما حييت ذلك الأثر الذي أحدثته في نفسي هذه النافذة المفتوحة ، وقد هوى منها ذلك الجسم ! لقد رأيتها في تلك اللحظة واسعة كالسواء فارغة كالفضاء ، فرجمت القهقري ، ولم أجروا على النظر كأنني خشيت أن أسقط . وتبدل جان فلم يستطع الحراك ولا النظر ؛ وتسابق الناس فأتوا بالفتاة مكسورة الساقين ، فلم تمش على قدميها بعد اليوم . وتقدم حبيبتها مبلبل الصدر من وخز الضمير ، منفعل النفس من اخلاص الفتاة ؛ فأواها إليه وتزوج منها

ذلك يا عزيزي حديث هذين الزوجين

وأقبل المساء ، فرغبت الفتاة في المودة خشية البرد ، فأخذ الخادم يدفع عربة الكسيجة نحو القرية ؛ ومشى الرسام بجانب امرأته وقد مضت عليهما ساعة من الزمان لا اللسان يخاطب اللسان ، ولا النظر يبادل النظر . (جى رى مرساها)